

خُلِق الكون في خدمة الإنسان



«خلق الله الإنسان على سطح هذه الأرض، ويسر له سبل العيش والحياة فيها، فجعل الأرض وما فيها وما عليها لصالح الإنسان، وأحاطها بنظام كوني يلائم ظروف الحياة عليها.

فجعل علاقة الشمس والقمر والجاذبية والغلاف الغازي.. إلخ علاقة مناسبة للحياة على الأرض.

وهياً للإنسان على سطحها وفي باطنها كلُّ مستلزمات الحياة والتطور فيها.. فجعل النبات والحيوان، والبحار والأنهار، والمعادن، كلها في خدمة الإنسان، ومن أجل توفير مصالحه وتيسير حياته، وأحاطه بالنعيم والخيرات، وآتاه من كلِّ ما يحتاج إليه في حياته، دونما نقص، أو خلل في نظام التكوين والعلاقة في عالم الإنسان والحياة.

وانَّ في هذا الإبداع والإتقان لمن يتأمله بوعي وصفاء لدليلاً على دقة التكوين، وإتقان نظام الخلق، بحيث لا يشاهدُ خلافاً ولا يجد اضطراباً في نظام الحياة، أو في علاقة الإنسان بالطبيعة، فالإنسان يجد كلَّ ما يحتاج إليه في هذا الوجود... من طعام، وشراب وهواء ونور، وحرارة ورطوبة.. إلخ:

قال تعالى: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَفَدَّ
فَمَّسَلْ لَكُمْ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ عَلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ)
(الأنعام / 119).

(قُلْ تَعَالَوْا أَتَلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفُّوا عَنِ كُفْرِهِمْ...) (الأنعام / 151).

فالمحرمات في الإسلام هي أشياء معينة ومحددة، وما عداها فقد جعل الإسلام الحياة وما فيها مباحة
للإنسان يتصرف بها كيف شاء، ويستمتع بها أنى شاء، وفق نظام ومنهج يحفظ مسيرة الحياة، ويوفر
الانضباط والإتزان السلوكي في كل نشاط وموقف إنساني..

لذلك استنكر القرآن مواقف أولئك الذين يضيقون الحياة على أنفسهم وعلى الآخرين ويجعلون ما أحل الله
وأباحه للعباد ممنوعاً ومحراماً عليهم، وتساءل مستنكراً هذا التصرف من الإنسان: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ
زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ..) (الأعراف / 32).

فالإسلام إذن لا يستهدف من وراء مفهوم الحلال والحرام في الحياة حرمان الإنسان، وشل طاقاته، وجعله
يدور داخل إطار من الزواجر والنواهي السلبية.. بل إن موقف الإسلام هو العكس من ذلك تماماً، وكما
توضحه الآياتان السابقتان... فإنه يؤمن بإباحة كل شيء نافع ومفيد للإنسان ويحرم الضار من الأفعال
والمواصفات التي تجلب الخطر أو تؤدي إلى الأضرار واضطراب الحياة الإنسانية.

وقد أكد القرآن في مواضع كثيرة من بيانه الإلهي الحكيم على هذا المبدأ، وأوضحه بحصره للمحرمات
في الخبائث والفواحش والمنكرات، فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّيْغِيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ) (الأعراف / 33).

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الذِّي بِيَّ الْأُمِّيِّ الذِّي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ

وَعَزَّزْ رُؤُوسَهُمْ وَزَمَّ مَرُوءَهُمْ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (الأعراف/ 157).

وهكذا تؤكد هذه الآيات بأنَّ سبب الحرمة كامن في ذات الموضوعات المحرّمة، وليس أمراً اعتبارياً هدفه التضييق والزجر الذي لا غاية ولا مبرر له، وقد ركز القرآن هذه الأسباب في ثلاث صفات أساسية هي:

الخبث - الفحش - المنكر

وهذه الأوصاف الثلاثة هي تشخيص لصفة القبح والضرر في الموضوعات المحرمة - سواء المادية منها أو المعنوية.

وبالعودة إلى قواميس اللغة نستطيع أن نعرف الدلالات الحقيقية لهذه الألفاظ ونعرف من خلالها دواعي التحريم وغاياتها.

فكلمة (الخبث) تعني في لغة العرب: (ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً) [1].

(وخبث وخبثاء وأخبث وخبثة وخبثات وخبائث: المستكره، النجس، كلُّ شيء فاسد، - كلُّ حرام - وهو مستعار.

الخبائث: ما كانت العرب تستقذره ولا تأكله، كالأفاعي والخنافس، والخبث ما كان في الذهب والحديد ونحوهما من الغش - ما لا خير فيه.

أما كلمة فحش فتعني في لغة العرب (ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال).

وأما كلمة منكر فنستطيع أن ندرك معناها إذا عرفنا أنَّ العرب - تقول (تنكر الرجل تغير عن حال تسرُّه إلى حال يكرهها - تغير عن حاله حتى ينكر -).

ومن هذا التحليل اللغوي لعناوين المحرمات - الخبائث - الفواحش - المنكرات، نعرف أنَّ الإسلام لم يحرم بعض الموضوعات المادية.. كبعض المأكولات والمشروبات... أو قسماً من السلوك الإنساني... إلا لأنَّها تنطوي على هذه الصفات وتولد الآثار والنتائج الخطرة والضارة بحياة الإنسان.

[1] - الراغب الأصفهاني- معجم مفردات ألفاظ القرآن.